عبدالعزيز
ابن سعود
مؤسس دولة
إسلامية حديثة

د. أنور معظم

ترجمها بتصرف محدود
للأستاذ **سعيد عبدالعزيز عبدالله**

تباينت آراء جمهرة من المؤرخين، وعلماء الاجتماع، والباحثين، ورجال السياسة، وغيرهم من المعلقين في تقييم عبدالعزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية ومهندس كيانها كرجل دولة، وسياسي، ومصلح ديني، ومؤسس دولة مترامية الأطراف، وداعية إلى التجديد. فهناك من أضفى على ذلك الدور خيالاً رومانسيا، وهناك من هام به اعجابا، وهناك من تناوله بالنقد. لكن الآراء فيه جميعاً، سواء أكانت له أم عليه، اتفقت على أهميته كمؤسس دولة حديثة. وقد يظل هذا التباين في النظرة إليه كرجل دولة، أو كزعيم ديني، أو كداعية إلى التحديث مدعاة للحيرة، إذ كيف يمكن لهذه الأدوار،

والوسائل، والأهداف، رغم تضاربها الظاهر، أن تتضافر جميعاً لصنع مـا أنجزه ابن سعود من نجاح. وفي مثل هذه الحالات التي تعطي فيها الوسائـل والنتائـج انطباعاً بالتناقض تبرز الحاجة إلى وجود إطار نظري. وهذه الدراسـة التي نحن بصددها لا تضيف جديداً عن حياة ابن سعود وانجـازاته، لكنهـا محاولـة لبناء هذا الإطار النظري الذي يعتمد على الحقائق التاريخية المعروفة لفهم ظاهرة ابن سعود.

مهما نحا المتشككون إلى الإقلال من شأن الدين في مسـيرة التطور في هـذا العصر فإن المجتمعات المسلمة في مختلف الأقطار سواءاكانت تعيش في بـلاد إسلاميـة أو غير إسلامية اثبتت قدرتها على الاستمرار من خلال إيمانها بصلاحيـة العقيدة الإسـلامية لواقع بلادها الاجتماعي والسياسي. وهذا مرده، في المقام الأول، إلى حقيقة ينسـاها أو يتجاوزها مختارين العارفون بها. وهي أن الإسـلام، في جوهـره، ليس مجرد مجمـوعة تعاليم، لكنه حضارة متكاملة ـ انه دين. والمقصود بالحضارة المتكاملة هي تلك المبنيـة عـلى الإيمان المطلق ـ أي نظـام ركيزتـه التوحيـد وتجسيده من خـلال الحكمـة.. إن الحكمة لها الدور الفاصل في وصل الحيـاة الإيمانيـة بمقتضيات التطـور. وقد أفـرزت المجتمعات الإسلامية في سابق عهودها مفكرين ومصلحين استخدموا الحكمة في تنقية الحضارة الإسلامية من العناصر الدخيلة عليها. ونحن حين نجد في مجتمع مـا سخطا على حضارته المعاصرة نـرى هناك من يـذكره بـالأسباب وهي انحـراف هذا المجتمـع بعيداً عن أصول تلك الحضارة. وإذا قام المجتمع بتصحيح تلك الانحرافات فإن حركة التصحيح تلك قد توصف أحيانا بالحركـة الرجعيـة، أو الإصلاحيـة، أو الإحيائيـة أو بالعودة إلى الوراء. وهذا فهم قاصر لطبيعة العلاقة الوثيقة القائمة دائمـاً بين العقيـدة والحضارة. ذلك ان مثل هذه الحركات، في الواقع، هي التي تعيد إلى حضارة ما وجهها الأصيل. هذه العودة إلى الأصول لا تتعارض بالضرورة مع الأخذ بأسباب التقـدم عند إعادة البناء الاجتماعي. ومن ناحية أخرى يمكن أن يتاح للمجتمع ظـرف مثالي يتمكن فيه ـ من تبني أساليب العصر في تحديث بنائه القائم اجتماعياً، وسياسياً، واقتصـادياً

حسب ظروفه الخاصة. والثابت تاريخياً أنه ما من ثورة حضارية بعيدة الجذور حدثت دون أن تسبقها دعوة إصلاح.

ان استعادة الوجه الناصع لحضارة ما، خاصة القائمة منها على العقيدة الدينية، عن طريق الإصلاح لا يكفى لتمكينها من مواجهة تحديات التطور. وهنا يجيء دور الحكمة في ابتكار الطرق والوسائل للتعامل مع تلك التحديات في سياق الحقائق الموجودة والمؤثرة في عصر بذاته. ان المجتمع الذي يقف على مفرق طرق طلبا للتغيير مطالب بتحديد تصوراته في أمور ثلاثة:

١ ـ «**الوضع الأمثل**» الذي ينشد تحقيقه من خلال التغيير.

٢ ـ **العقيدة المثلى** (الأيديولوجيا) الذي يستهدف من خلالها تحقيق هذا «الوضع الأمثل».

٣ ـ شخص «**البطل الأمثل**»: المسلح بهذه العقيدة والمطلوب لتحقيق «الوضع الأمثل».

وقد يحدث الا توافق بعض قطاعات المجتمع على أي من هذه الاختيارات الثلاثة حيث قد تتعدد المصالح وتتركز حول كل منها فئة من الفئات. وتبعاً لذلك التعدد في المصالح الفئوية قد يتغير مفهوم الاختيارات المثلى الثلاثة وتظهر أكثر من مجموعة لهذه الاختيارات، وبذا ينشأ التضارب بينها. وتعتمد نسبة التغير في مجتمع ما على محصلة هذا الصراع واختيار أنسب «ثلاثي أمثل» من بينها جميعاً.

والآن لنشرع في تطبيق هذا الإطار النظري على مجتمع شبه الجزيرة العربية في نهاية القرن التاسع عشر حين تهيأ ابن سعود للانطلاق في مهمة بناء الدولة.

كان مجتمع شبه الجزيرة العربية في ختام القرن التاسع عشر، بعد قرون طويلة من المعاناة تحت وطأة الإهمال العثماني، يتهيأ للتغير السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي. كان هدفه تحقيق «وضع أمثل» من التوحد السياسي، والتكامل الاجتماعي، والأمن الاقتصادي. وواضح ان ذلك هو غاية أي مجتمع في أي مكان وأي زمان. لكن الوضع كان أكثر إلحاحاً بالنسبة لشبه الجزيرة لسبب خاص. ذلك ان

الشعوب التي كانت تتبوأ في السابق مكاناً مجيداً دائماً ما تتوثب إلى استعادة ماضيها إذا أصابها اضمحلال. وشعب الجزيرة كان له في التاريخ القريب ذلك الماضي العريق سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وثقافياً. وفي سبيل تحقيق هذا «الوضع الأمثل» كانت شبه الجزيرة قد استقرت بالفعل على «عقيدة» (ايديولوجيا) هي عقيدة التوحيد التي نادى بالعودة إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣/١٧٩١)⁽¹⁾. وكان مفهوم «البطل الأمثل» القادر على تحقيق «الوضع الأمثل» يتركز في أنه الشخص المتوقد حماساً لتخليص شبه الجزيرة من ربقة الاحتلال التركي وتحويلها إلى مجتمع يسوده العدل، «يخلو من بدع الجاهلية - أي إلى الحضارة الإسلامية الأصيلة». هذا «البطل الأمثل» الذي يعتبر التوصل إليه ضمن الاختيارات الثلاثة أمراً بالغ الحيوية تمثل في شخص ابن سعود. وباختيار الثلاثي المنشود شرع مجتمع وسط شبه الجزيرة، وعلى مدى خمسين عاماً، يخوض صراعاً شاقاً لتحقيق غاياته.

في هذا الوقت الذي كانت فيه شبه الجزيرة تعيش مرحلة القرارات الصعبة كان العالم الإسلامي أو بالأحرى الشرق عموماً قد دخل في القرن التاسع عشر صراعا حاسما ضد الهجمة الضارية من الغرب على الصعيد الفكري، والثقافي، والسياسي. كان هذا يصدق على الكيانات الثقافية والسياسية الكبرى القائمة للدولة العثمانية في غرب آسيا وامبراطورية الموغال في شبه القارة الهندية، والدول الإسلامية في جنوب شرق آسيا. وبينما كانت الولايات الإسلامية في الشرق الأوسط وشمال أفريقية تجاهد يائسة - على الأقل - لتمثل غايات تلك الهجمة الغربية في سياق تقاليدها السياسية والحضارية كانت هناك منطقة بمنأى عن هذا التهديد الا وهي وسط شبه الجزيرة العربية.

كانت منطقة وسط شبه الجزيرة - كولاية عثمانية - بمنأى عن اهتمام الدولة اجتماعياً وسياسياً حتى الحرب العالمية الأولى. واكتفى الأتراك بالسيادة الإسمية على نجد والحجاز من خلال حكامهما الضعاف غير المبالين بمصالح رعاياهم. لذلك لم تعر الدول الأوروبية أدنى اهتمام بوسط شبه الجزيرة حيث لم تر فيه ما يخدم مخططاتها في الاستغلال السياسي والاقتصادي لكل من آسيا وأفريقيا. هذا الإهمال المزدوج حفظ

لمجتمع البادية العربي قيمه وأعرافه التقليدية....

لقد ظل الدين والمجتمع صنوين متلازمين في هذه البلاد في الوقت الذي كانا فيه يتباعدان في مناطق أخرى بفعل التواجد الأوربي. وكان هذا التلازم قد ازداد توثقا خلال القرن الثامن عشر بظهور حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية مدعومة بالقوة السياسية لآل سعود في وسط شبه الجزيرة العربية.

لقد ساعدت عزلة شبه الجزيرة على هذا التلازم الوثيق بين الدين والسياسة. وكانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب تهدف إلى تغيير المجتمع من خلال وسائل ستة:

١ ـ رفض **التقليد** ـ فيما ابتدع في الإسلام مما **لا** نص فيه من الكتاب والسنة.
٢ ـ قبول **الاجتهاد**.
٣ ـ تطهير المجتمع المسلم من كل البدع.
٤ ـ تعليم الناس أصول الإسلام الصحيحة من خلال مكاتب تحفيظ القرآن.
٥ ـ التمسك بمكارم الأخلاق.
٦ ـ وجود هيئة للإشراف على كل ما سبق.

بذلك كان للتحالف بين «الأيديولوجيا» وبين ذراع آل سعود القوية الفضل في انتشال أهل شبه الجزيرة العربية من ظلام العصور الوسطى إلى نور القرن العشرين.

تناولنا بالشرح في الفصلين السابقين الإطار النظري للأحداث السياسية والاجتماعية التي مهدت الطريق أمام الإمام عبدالعزيز آل سعود لبناء الدولة الحديثة في شبه الجزيرة. وكانت قد سبقت ذلك الحركة الدينية السياسية الاصلاحية للشيخ محمد بن عبدالوهاب التي حققت انتصارات كبرى ثم تعرضت لمحنة. فقد أقدم الحكام العثمانيون حين أفزعهم تنامي قوة آل سعود بعد مهاجمة كربلاء (١٨٠٢ ـ ١٨٠٣) والاستيلاء على كل من مكة والمدينة (١٨٠٣ ـ ١٨٠٤) على استخدام محمد علي، والي مصر، في قمع تلك القوة (١٨١١ ـ ١٨١٢م). كذلك أدى الشقاق بين أفراد العائلة السعودية إلى تجميد تضامنهم أواخر القرن التاسع عشر، فانتهز ابن الرشيد الفرصة وراهن على نجد. ولما عجز عبدالرحمن الفيصل عن التصدي له اختار النزوح

إلى الكويت عام ١٨٩٠ مصطحبا ولده عبدالعزيز - وهو بعد صبي في العاشرة - تاركا نجدا اثنتي عشرة سنة تحت حكم آل الرشيد. وربما كان لفترة الإقامة بالكويت تلك فضل تعريف عبدالعزيز بالتيارات السياسية المتلاطمة في منطقة الخليج وما يجاورها في الشمال الذي كان يتزايد فيها بإطراد النفوذ السياسي لحكومة الهند البريطانية.

لم تكن فترة إقامة ابن سعود في الكويت هي وحدها التي أملت عليه قراره في استعادة ملكه الضائع وتوحيد بلاده في أمة واحدة. فكما يتضح من مسلسل الأحداث جاء قراره على أساس تحليل مجرد لجوانب السلب والإيجاب في مهمته الضخمة. فالطبيعة المزدوجة لتلك المهمة وهي الإصلاح الاجتماعي والديني والتوحيد السياسي اقتضت تخطيطاً دقيقاً صعباً. ومن بصيرته بمجريات الأمور أدرك ان امتلاك ناصية الحكم هو مفتاح حركة الإصلاح. وقد توفر له ذلك بعد اخضاع كل بلاد نجد وما جاورها إلى حد كبير. ففي الفترة من عام ١٩٠١ - إلى عام ١٩١٢م(٢) أكمل ابن سعود الجانب الأكبر من خطته السياسية في بسط سيطرته على نجد. وكانت استراتيجيته تقوم على بسط نفوذه دون الدخول في أية مواجهة مباشرة مع الحكومة العثمانية. وقد بدأ بازاحة ابن الرشيد وفتح الرياض وما جاورها (١٩٠٢ - ١٩٠٤). وحين هبت قوات تركية لدعم ابن الرشيد لم يتردد في عقد اتفاق تم بموجبه الاعتراف به حاكما على نجد مقابل اعترافه بحياد القصيم (التابع لابن الرشيد وقتها)، وهو الإقليم الذي قام بضمه فيما بعد عام ١٩٠٦م. أما خصم ابن سعود اللدود الآخر فكان الحسين شريف مكة الذي أثار حنقه تزايد سلطة ابن سعود. كانت ثورة عام ١٩٠٨ في تركيا قد أطاحت بالسلطان عبدالحميد. ونظراً لتطور الأمور في شبه الجزيرة العربية قامت بتولية الحسين شريفاً على مكة. وقام الشريف، بايعاز من الأتراك، بتحريض القبائل الموالية لابن سعود على نقض ولائها له.

في أثناء ذلك شرع ابن سعود في تنفيذ خطة أخرى لتامين خطواته الا وهي تكوين حركة الإخوان. ذلك أن نجاح ابن سعود حتى عام ١٩١٢ كان يعتمد على الدعم القبلي. لكنه الآن أدرك بالتجربة أن الدولة الموحدة لا تستطيع الاستمرار، حتى بعد قيامها، معتمدة على دعم قبلي غير ثابت، وإنما بوجود مجتمع متجانس

ومتكامل. وربما كان من رأيه ان انجازاته حتى ذلك الحين ليس مردها إلى انتصاراته العسكرية فقط وإنما تعود بنسبة كبيرة إلى تراخى الحكومة التركية تجاهه لانشغالها خلال تلك الفترة بمشاكل أهم في ولايات عربية أخرى. أضف إلى ذلك فهمه لطبيعة البدو وتذبذب ولاءاتهم بفعل ظروفهم الاقتصادية والأمنية الصعبة. وذلك ما كان يفسر العرف القبلي المعروف: الخوة، وهي الأتاوة التي تدفعها القبيلة الضعيفة إلى من يجيرها من القبائل القوية. لذلك أقدم ابن سعود على خطوة حاسمة في خلق تكامل اجتماعي واقتصادي منظم من سكان البادية.

أقنع سكان البادية بالاستقرار في **هجر** حيث يباشرون الزراعة والتجارة كإخوان. هذه الفكرة العبقرية استهدفت خلق وعي أسمى من الانتماء القبلي وما يتلوه من إلغاء سلطة شيوخ القبائل بما في ذلك من دلالات اجتماعية، وسياسية، واقتصادية بعيدة المدى. كانت علاقات الهجر تمثل ارتباطا أساسه **الاخوة**.

ولم يكن ذلك شيئا مبتكراً بالنسبة للعرب إذ ما هو إلا عودة إلى روح الإسلام الأولى. وقد تطورت حركة الهجر تدريجياً إلى حركة للإخوان، وغطت مناطق كثيرة من نجد وما حولها. وعليه تم حظر جباية **الخوة** وفرضت جباية **الزكاة**. كذلك أصبح كل ما يدفع لشيوخ القبائل دعماً لنفوذهم يناقض الشرع. ورغم أن عملية تحضير البدو فرضت بعض القيود على حركتهم إلا أنها وفرت لهم مزيدا من الأمن وتحسنا في مستوى المعيشة كما بشرت بزيادة في الانتاج توفر بدورها دعما منتظما للدولة. وأصبح الإخوان معيناً بشرياً يستمد منه ابن سعود الرجال ويزودهم بالسلاح والذخائر. وفي المعارك صار أربعة أخماس الغنائم يذهب إليهم والباقي للدولة. وأصبح الإخوان القوة الضاربة لإبن سعود لخمسة عشر عاماً تلت ذلك، ولم يقتصر دورهم على الجهاد في الحرب بل صاروا مدرسة يتخرج منها رجال الدعوة الإصلاحية. لقد ساروا على نهج متشدد وفرضوا تطبيقه. ومع الإخوان نمت فئة من **العلماء** تكاتفت مع ابن سعود في إنجاح دعوته.

ورغم اختيارهم لابن سعود إماماً لهم فقد ظل الإخوان على دأبهم في تطبيق الشرع بأسلوب لا هوادة فيه متجاهلين النتائج السياسية المتمخضة عن شططهم.

وكان لابد من تحذيرهم إلى ما يتوجب عليهم فعله أو تحاشيه لاعتبارات تتصل بالواقع. لكنهم تجاهلوا ذلك بحكم تعودهم، حتى عهد قريب، على عدم الخضوع لأية سلطة مركزية. وانفرد الإخوان، دون تصريح، بغارات داخل العراق وانغمسوا في فرض ما يرونه تطبيقاً للشريعة الإسلامية بالقوة فأثاروا بذلك ـ أمام سياسة ابن سعود الحذرة ـ مشاكل خطيرة.وكان من أسباب الفجوة التي باعدت بينهم وبين ابن سعود في مفهومهم غير النظامي لتطبيق الشرع، واعتبارهم كل من يخالفهم أسلوبهم في الاصلاح الديني مسلما ناقص الإيمان. وكذلك اعتبارهم كل جديد بدعة مرفوضة. هذا المفهوم لم يكن ينسجم مع رغبة ابن سعود في بناء دولة تقوم على مساندة الناس له مختارين لامكرهين. واضطر ابن سعود إلى تسريح جيش الإخوان في نجد وإعادة أفراده إلى مواطنهم. ولما رأى بعض الإخوان أن دورهم الفعال بات ينكمش إلى أدنى حد لجأوا للعصيان الذي تم سحقه في مارس / ديسمبر عام ١٩٢٩م.

بحلول عام ١٩١٣م كان ابن سعود قد انجز الجانب الأول من مهمته في توحيد قومه بنجد اجتماعياً، ودينياً، وسياسياً. وكانت التطورات التي واكبت ذلك في المناطق المجاورة قد مهدت لخطوته التالية في ضم منطقة الأحساء التابعة للسيادة التركية. فخلال العقد الأول من القرن العشرين كان الحكام الأتراك يواجهون مصاعب إزاء الثورات المنشقة في الولايات العربية غير نجد. وبفعل تركيز هؤلاء الحكام الشباب منذ ثورتهم عام ١٩٠٨ على الدعوة إلى القومية التركية بدأ العرب يدركون بأن لا ضمان لحقوقهم في ظل الإمبراطورية العثمانية ونما الشعور القومي بين العرب في ولاية الشام كرد فعل لدعوة القومية التركية. ونشطت الجمعيات السرية في الدعوة للهوية العربية القائمة على اللغة العربية والتراث الحضاري العربي. وسارعت بريطانيا العظمى، بحكم كونها القوة الكبرى في المنطقة، في تنفيذ مخططاتها لتأمين طريقها إلى الهند عبر منطقة الخليج وذلك بعقد سلسلة اتفاقيات مع شيوخه. وكان اضطراب الأحوال في الشمال فرصة ذهبية أمام ابن سعود للتوسع، خاصة في منطقة الأحساء التي تعتبر بساحلها الطويل ذات أهمية استراتيجية بالغة. وقد اخفقت محاولاته السابقة في كسب الدعم البريطاني في ذلك. أما الآن، ومع تغير الظروف، وتزايد نفوذ ابن سعود في المنطقة، وانحراف الأتراك نحو ألمانيا قبل الحرب العالمية مباشرة، فقد أظهرت بريطانيا

حيادها. لذلك ضم ابن سعود الأحساء عام ١٩١٣ دون جهد كبير.

وهذا يدلل من جديد على بصيرة ابن سعود السياسية والتزامه بهدفه الأسمى وهو إقامة دولة عربية عملاً لا قولاً.

وجاءت الحرب العالمية الأولى لتجد ابن سعود ماضياً في تدعيم نفوذه داخلياً دون التورط في معركة المزايدات بين الأتراك والحلفاء على البلاد العربية. وقد جاهد الحلفاء لكسب جانب العرب خاصة الشريف حسين منتهزين فرصة السخط العربي على الأتراك وفزعين من دعوة الجهاد التي أطلقها الخليفة العثماني. وأدت المفاوضات مع ابن سعود إلى اتفاقية العقير في إبريل عام ١٩١٥م التي اشترطت حياد ابن سعود في الحرب، وتجنب مهاجمة جيرانه ومنهم الشريف حسين، وعدم إقامة علاقة بدول خارجية إلا من خلال بريطانيا. وفي المقابل وعده البريطانيون بضمان حقوقه. وقد تُوجِي الاتفاقية بأنه سلم سلطاته لبريطانيا لكن الواقع أنه لم يكن وارداً في نيته، أثناء الحرب، القيام بأي نشاط عسكري قد يجلب تدخل الحلفاء المتواجدين بالفعل في الشمال من بلاده. وقد زاد هذا الاتفاق من أهمية ابن سعود كابرز شخصية في الخريطة السياسية لشبه الجزيرة. والواقع أن ابن سعود آثر عدم القيام بأي نشاط عسكري يمكن أن يودى بالمكاسب التي حققها بالفعل. وقد اختار تأييد الثورة العربية عام ١٩١٦ بقيادة خصمه اللدود الشريف حسين وأخذ جانب الحلفاء فيها لأن كليهما كان يوافق خططه في استقلال العرب. ورغم توتر علاقته بالشريف حسين فقد آثر تجميد أي هجوم ضده إلى حين.

وبعد الحرب العالمية الأولى جاءت المرحلة الأخيرة في الكفاح من أجل السيادة السياسية في شبه الجزيرة العربية لتشهد بروز ابن سعود كرجل دولة له مكانة متميزة. كانت البلاد العربية قد انقسمت إلى وحدات سياسية منفصلة، فسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، والعراق، وشرق الأردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني. وكان هذا الترتيب يناقض كل وعود الحلفاء للشريف حسين في استقلال العرب. ولجأ ابن سعود إلى تأمين حقوق بلاده بالتعامل مع الغرب على أساس المصالح المشتركة.

ومن هذا المنطلق جاءت خطوته التالية نحو شمر والحجاز. ففي السنوات ١٩١٩ - ١٩٢١م تمكن من تصفية ابن الرشيد نهائيا وضم أراضيه. كذلك تم تنظيم العلاقات مع العراق وشرق الأردن باتفاقيات عقدت عامي ٢٢/١٩٢٥م. وفي عامي ١٨/١٩١٩م تدهورت علاقته بالشريف حسين الذي أعلن نفسه ملكاً على الحجاز. وتمخض الصدام المتكرر مع الشريف في النهاية عن احتلال الحجاز عامي ١٩٢٤م ١٩٢٥م. وفي يناير ١٩٢٦م أعلن ابن سعود نفسه ملكاً على الحجاز، ونجد، وملحقاتهما. واعترف الاتحاد السوفيتي باستقلاله الكامل وتبعته بريطانيا ودول أخرى. وفي عام ١٩٣٢م(٣) اطلق اسم المملكة العربية السعودية على الدولة بحدودها الحالية.

يتبين من التحليل السلبق أن «الوضع الأمثل» الذي جرى تصوره في نهاية القرن التاسع عشر في شكل دولة متكاملة أساسها عقيدة التوحيد التي نادى بالعودة إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد تم انجازه على يد ابن سعود في الثلاثينيات. غير أن تطورات الأمور في الثلاثينيات توضح أن هناك بعداً جديداً أضيف إلى «الوضع الأمثل» ألا وهو «التحديث»، وليس المقصود بذلك المضمون الديني (حيث لا تغيير في أمر العقيدة) وإنما المقصود الجوانب الإدارية، والتعليمية، والاقتصادية للدولة. وكان هذا النوع من التحديث قد بدأ بالفعل في كل من لبنان، وسوريا، والعراق، وشرق الأردن، وفلسطين على يد دولتي الانتداب فرنسا وبريطانيا - لاحبا في تطوير شعوب هذه البلاد لذاتها، بل لضرورة هذا التحديث في تسهيل حكمهما لها. ولم يكن قرار ابن سعود في تحديث بلاده من منطلق وازع سياسي، لكنه دليل على تمرسه بفنون الحكم وإدراكه أن لا بقاء لدولة في القرن العشرين أيا كانت ايديولوجيتها أو كانت قوتها دون الأخذ بالعلوم العصرية وتوظيفها في خدمة الدولة. لقد كان قراراً مصيرياً أقدم عليه قائد كان إلى عهد قريب يحكم مجتمعا قبليا (هو نفسه ينتمي إليه)، يتشبث بالقديم ويرتاب في كل ما يبدو محدثا. وكانت إضافة هذا البعد الجديد إلى «الوضع الأمثل» مدعاة لتوسيع مفهومي «الأيديولوجيا» و«البطل الأمثل». وعليه امتدت الأيديولوجيا لتشمل الأخذ بالمعرفة العصرية وجواز استخدام

المخترعات العلمية شرعاً. وهذا يوضح أن ابن سعود لم يـر في استخدام العلم الحديث ما يخالف العقيدة الإسلامية. إنه على العكس من ذلك ينسجم تماماً مع تعاليم الإسلام في طلب العلم ولو في أقصى الأرض. إن شخص «البطل الأمثل» الآن اتسعت مواصفاته لتشمل الأخذ بالعلم الحديث جنباً إلى جنب مع الإيمان بالعقيدة الإسلامية في تأسيس «الوضع الأمثل» بمفهومه الأشمل.

كان تحديث بناء الدولة هو المرحلة الأخيرة من المهمة العظمى لابن سعود. ورغم أنه لم يتح له إكمال تلك المرحلة فإنه نجح في إرساء أسس البناء الشامخ الذي أكمله خلفاؤه على خير وجه، فقد كانت له البداية في تحديث النظام الاقتصادي، والتعليمي، ووسائل الاتصال والنقل. فعلى الصعيد الاقتصادي كانت تعبئة الموارد هي المهمة الأولى. وكانت أهم بنود الانفاق هي الحملات العسكرية، والرواتب. وما يتقاضاه الإخوان. لم تكن لديه مؤسسات زراعية أو تجارية ينفق من إيرادها على هذا الغرض. أما عن منطقة الأحساء، وشمال الجزيرة، والحجاز التي كان يمكن أن توفر إيرادا للانفاق فقد ضمت فقط في الأعوام ١٩١٣م، ١٩٢١، ١٩٢٤/١٩٢٥م على التوالي. لذلك اقتصر دخله حتى ذلك الحين على الضرائب فقط، وكانت نوعين:

١ - ضرائب إسلامية كالزكاة، والغنائم، والعشر أو الخمس.

٢ - رسوم جمارك على الواردات من الأحساء والقطيف (بعد عام ١٩١٣م).

وكانت المعونة البريطانية تمثل موردا آخر بعد عام ١٩٢٤م لم يكن له، بالمفهوم المادي، فاعلية كبيرة. لذا عمد ابن سعود إلى اجراءات فورية لضمان تحقيق دخول جديدة. وأبرم اتفاقية مع البحرين لتقاضي رسوم تجارة عبور بواقع ٥٪ عام ١٩٢٠م، وأخرى مع الكويت عام ١٩٢٣م بخصوص رسوم واردات بنسبة ٤٪.

لكن النقلة الكبرى في التطور الاقتصادي جاءت مع استكشاف الثروات المعدنية وأولها البترول. ففي عام ١٩٣٣م حصلت شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا Standard Oil of California على امتياز سعودي لاستكشاف الزيت، وفي

السنة التالية Saudi Arabian Mining Syndicate تم تاسيس الشركة العربية السعودية للمناجم بتعاون بريطاني أمريكي لاستكشاف الثروات المعدنية غير البترول. وقد كان لهذه وتلك نتائج باهرة على مستقبل المملكة العربية السعودية. وبدأت الشركة العربية الأمريكية للزيت (أرامكو) الاستكشاف عام ١٩٣٣م ووجد البترول بكميات تجارية عام ١٩٣٨م. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية تم كشف أربعة آبار للزيت وتم إعداد التجهيزات اللازمة بما فيها معمل للتكرير. وفي الأعوام ١٩٣٨ ـ ١٩٥٥م ارتفع إنتاج الزيت من نصف مليون برميل إلى ٣٥٦,٦ مليون برميل محققاً زيادة في الدخل من ٣,٢ مليون دولار أمريكي إلى ٣٤٠ مليون دولار. ولا حاجة هنا لمزيد من القول في أن الثروة البترولية قد أحدثت انقلابا هائلاً في البيئة الاجتماعية، والاقتصادية للمملكة العربية السعودية، وكذلك في الاستراتيجيات السياسية، والتنموية لحكامها وفي حياة سكانها. وقد اتجهت الجهود نحو امتلاك وسائل تسهم في بناء اقتصاد قوي. ففي عام ١٩٥٢م أنشئت مؤسسة النقد العربي السعودي في جده لتقوم بدور الجهاز المصرفي للدولة، واستقرار قيمة العملة، والتصرف في الإيرادات النقدية، وإصدار العملات المعدنية والورقية، وتنظيم الصيرفة. وفي الأربعينات اضطرت المملكة، بفعل مصاعب اقتصادية كبيرة، بسبب الحرب العالمية أساساً، إلى طلب المعونة الخارجية خاصة من الولايات المتحدة. وتلقت قروضاً من بنك الاستيراد والتصدير ابتداء من عام ١٩٤٣م فصاعدا باستثناء عام ١٩٤٨م حين رفضت قرضا أمريكياً احتجاجاً على السياسة الأمريكية تجاه قضية فلسطين ـ وعلى أية حال فقد كان الدخل وقتها من صناعة البترول المتزايدة قد حرر المملكة من الاعتماد على أية معونة خارجية، بل إنه مكن الحكومة في يولية عام ١٩٤٩م من الشروع في خطة تنمية رباعية كلفتها ٢٧٠ مليون دولار أمريكي.

وفي مجال التعليم أنشأ ابن سعود المدارس الابتدائية، والمتوسطة، والعالية جنباً إلى جنب مع المعاهد الدينية. كذلك جلب المدرسين الأكفاء من الدول المجاورة من غير المتوفرين في بلاده وأنشأ معاهد للمعلمين. وفي عام ١٩٥٣م ـ وهي السنة التي توفي فيها ـ كانت هناك بالفعل ٣٢٦ مدرسة ابتدائية

بها ٤٣٧٣٤ تلميذاً ١٦٥٢ مدرساً، ومدرستان ثانويتان بهما ٥٣٤ طالباً، ٤٣ مدرساً، ومعهداً للمعلمين، وكلية للشريعة. وبلغت ميزانية التعليم عام ١٩٥٣م عشرين مليون ريال سعودي.

وفي ميدان النقل والمواصلات بدأت خطوات كبيرة لربط أجزاء البلاد. وانشئت مراكز الاتصال اللاسلكي، والتليفوني، والبرقي، ومكاتب البريد في جميع أنحاء البلاد. وأصبحت هناك طرق معبدة تربط الطائف، ومكة، وجده، والمدينة. كذلك أوليت برامج تحسين نقل الحجاج عناية خاصة. وتم ربط الدمام، والظهران، وابقيق، والهفوف، والرياض بخطوط حديدية. كذلك تم إدخال النقل الجوي، وبناء مطارات. وجرى إنشاء موانيء جديدة أو تجديد موانيء أخرى في كل من جده، ورأس تنوره، والدمام. ولنشر الوعي بين الناس شجع ابن سعود إنشاء الصحف والجرائد اليومية، والأسبوعية وغيرها. ونالت مسألة تطبيق الشريعة دائماً اهتماماً كبيراً من ابن سعود في كفاحه السياسي الطويل. ومن هذا المنطلق تعززت حركة الإخوان. وقد أنشأ إدارة خاصة هي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للإشراف على الشئون الدينية في البلاد. ورغم كونه حنبلي المذهب لم يعترف ابن سعود بأي تمايز يقوم على أساس الانتماء لأي من المذاهب الأربعة.. وتأسست المحاكم الشرعية في جميع أنحاء البلاد. وأدى الالتزام بتطبيق الشرع إلى محو الجريمة في المملكة كما اعترف بذلك الكثيرون من زوار مكة والمدينة في تلك الفترة. كذلك قام مجلس الشورى لوضع تنظيم الأحكام الشرعية في البلاد.

جاءت بصمات ابن سعود النهائية على شخصية المملكة العربية السعودية في تحديد مبادىء سياستها الخارجية. وكانت إحدى ركائز تلك السياسة هي عدم التدخل في شئون الغير، والركيزة الأخرى هي عقد التحالفات مع الدول العربية الأخرى والمساعدة على تحالف الدول العربية فيما بينها. ولقد سار هو على سياسة الوفاق والتفاهم حتى أثناء فترة توحيد مملكته، والتي تظهر بوضوح في اتفاقيات الحدود «بحرا وهدا» عام ١٩٢٥م مع العراق، وشرق الأردن، واتفاقية الطائف مع

اليمن عام ١٩٣٤م. وعن علاقته ببريطانيا العظمى، وهي الدولة الكبرى المؤثرة وقتها في المنطقة، فقد سواها ودياً باتفاقية جده عام ١٩٢٧. بعد ذلك عقدت اتفاقيات صداقة وأخوة ذات طابع سياسي واقتصادي مشترك مع عدة دول عربية منها سوريا. ولبنان، والعراق، والكويت، وشرق الأردن، ومصر. وقد تعتبر مشاركة ابن سعود في تأسيس الجامعة العربية عام ١٩٤٥م أهم مبادرة ديبلوماسية في التاريخ العربي حيث لم توفر فقط منتدى للتعاون السياسي والاقتصادي والتعليمي بل أنشأت للعرب جهازاً سياسياً قوياً يتصدى للمخططات الدولية ضد العالم العربي وأولها الصهيونية.

خاتمة

قلنا في البداية ان هدف الدراسة هو محاولة لتقييم إسهام ابن سعود في بناء الدولة من خلال إطار نظري. والآن، وبعد إتمام المحاولة، لنا أن ندرس نتائجها.

ربما لاحظنا أنه من بين الاختيارات الثلاثة في «الوضع الأمثل» و«العقيدة المثلى» و«البطل الأمثل» كان الاختيار الثالث هو صاحب الدور الحاسم في تحقيق نتائج محددة. فقد رأينا أن الواقع الاجتماعي والسياسي والقوى التقليدية يمكن ان تجهض الكفاح من أجل التطور حتى في ظل الاختيار السليم للنماذج المثالية. لذلك يصبح وجود أو صنع الشخصية أو الشخصيات المثالية القادرة على قهر قوى التخلف أمر بالغ الحيوية. وغياب مثل هذه الشخصيات يفسر فشل الكثير من الحركات الاجتماعية والسياسية في الماضي والحاضر. ومن هنا يكتسب نجاح ابن سعود أهمية فريدة. لقد نجح رغم القيود الثقال في تحقيق «الوضع الأمثل»، ولم يكن في استطاعة شخص آخر أن يأت ما أتاه هو كما في حالة كل من الشريف حسين وابن الرشيد. ونجاح ابن سعود في تاسيس دولة عربية لا يمكن مقارنته بظهور دول عربية أخرى في المنطقة. ذلك أن كلا من سوريا، والعراق، وشرق الأردن قد تاسست بترتيب الدول الأوربية. وبالمثل فإن عمليات تحديث هذه الدول جاءت أساساً تلبية لحاجات حكامها الأجانب، بينما ما حدث في المملكة كان انجازاً خالصاً لابن سعود. وثالثاً فإنه لم يحدث أن انجزت دولة عربية، أو أية

دولة أخرى لها نفس الظروف، هذه القفزة الضخمة من المجتمع القبلي إلى العصر الحديث مثلما فعلت المملكة العربية السعودية. لقد كانت البلاد الواقعة تحت الانتداب أكثر تحضرا من بلاده في بداية عملية تحديثها، وبذا جاء التغيير فيها أقل صعوبة. وفي النهاية يجب على من يتعرض بالتقييم لدور ابن سعود تفادي إغراء النظر إليه كمفكر أو مصلح ديني فقط. فهو نفسه لم يدّع ذلك. لقد قام بوازع من إيمانه العميق بتأسيس دولة كان لقومه فيها الدور البارز في تغيير حياتهم وفقا لما تمليه العقيدة الإسلامية وهي رسالة السلام للناس كافة.

○○○

الهوامش

(١) ورد في النص الإنجليزي إلتباس لدى الباحث عن تاريخ ميلاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب حيث ذكر عامي ١٦٩١م، ١٧٠٩م، والصواب كما ذكرنا في الترجمة أنه ولد عام ١٧٠٣م.

(٢) ورد في الأصل الإنجليزي «الفترة من عام ١٨٩٧ ـ ١٩١٢م»، والصواب أنه من عام ١٩٠١ ـ ١٩١٢م لأنه قبل ذلك لم تكن له تحركات.

(٣) ورد في النص أن إعلان توحيد المملكة كان عام ١٩٣٣م، والصواب كما ذكر في الترجمة أنه عام ١٩٣٢م.

(الإسلام عزيز علي ورهبته في قلوب أعدائه كبيرة فواجب المسلم أن يقوم بالدعوة إلى الله عبادة خالصة وأن يسعى لإصلاح شئون المسلمين إصلاحاً حقيقياً لا نظريا).

الملك عبدالعزيز